العالم ابن خلدون (ت 808 هـ)
(نظريته في السياسة والعصبية)

أ. م. د. احلام محسن حسين
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

(خلاصة البحث)

يُعدَّ ابن خلدون من أبرز العلماء العرب المسلمين ممن كان لهم مشاركة فعالة في بناء التراث العربي الإسلامي في مختلف الاختصاصات والاتجاهات ولاسيمّا في مجال علم الاجتماع، وفيما يخص العصبية ونظرياته السياسية التي عمل من خلالها على إظهار مدى تطور الفلسفة العربية في مجالات العلم وتبلورت مقدمته التي اصبحت محط انظار واهتمام الباحثين الذين وسعوها بالدراسة والبحث.

وإغناء مجالات التراث العربي الإسلامي فيها إذ اعتمد على مجموعة أُسس في بناء نظريته السياسية (العصبية)، إذ كانت هذه النظريات ذات عمق ممكن تطبيقه على كل عصر وزمان وعلى جميع الأُمم. وقد ابدع ابن خلدون في تصوير هذه الأحوال بالأدلة على عادته من التاريخ. فكانت اهدافه في هذا الموضوع مترابطة فيما بينها ترابط منطقي ينسجم مع جوهر نظريته الاجتماعية معتمدا فيها حسب نظريته أنّ العصبية والغزو ه ما المسئولان عن النمط العام للحضارة العربية الإسلامية سياسياً واجتماعياً وعمرانياً وثقافياً ودينياً، لانه عد في هذا المجال دولة العرب ودولة الإسلام تنشأ وتستكمل تنظيماتها ومقوماتها الى أن اصبحت حقيقة واقعة بعد (سقيفة بني ساعدة)، فقد كان من الطبيعي أن تنشأ دولة الاسلام مطبوعة في نظامها وتشريعاتها بالنظم القبلية الى حد كبير. وغيرها من الاتجاهات الاخرى التي تنطبق على هذه

الحالة، لذا كان ابن خلدون يرى أنه يجب أن نتعظ من التاريخ، أي من خلال التعبير عن فكر ابن خلدون الصادق.

المقدمة

لقد تطورت الفلسفه العربية في عصر بلغت فيه قوى الإنتاج مستوى جيدا من النهوض، رافقه تطور في العلم وتكنيك لم تشهد أوربا مثله حتى القرن الثالث عشر الميلادي ويقول (انجلز) في تثمينه لدور العرب في الفكر العلمي ما يلي:

((لقد ترك العرب نظام التعداد العشري، وبداية الجبر والأرقام الحديثة والكيمياء، في حين لم تترك أوربا في القرون الوسطى أي شيء))[1].

لقد كانت مقدمة ابن خلدون من أكثر ابداعات الفكر العربي في القرون الوسطى التي استرعت اهتمام الباحثين الغربيين الذين كرسوا لها عددا كبيرا من البحوث، وكان أول تعرف لهم (بالمقدمة)قد جرى في القرن السابع عشر عندما نشر (ديربلو) بعض المعلومات من مؤلفها مرفقه بترجمة لمقاطع منها. أما في العالم العربي فكان أول بحث عن المقدمة هو الذي قدمه الدكتور طه حسين عام (١٩٤١)تحت عنوان (فلسفه ابن خلدون الاجتماعية) ونال على أساسه شهادة الدكتوراه.

أما ما يخص موضوع بحثنا عن الأسس التي بنى عليها ابن خلدون نظرياته السياسية والعصبية وهو يشرحها بالتحام النسبي الذي يقضي الغيرة على ذوي القربى ويقول:

((فإنّ القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبس ما يصله من المعا طب والمهالك، وهي نزعه طبيعة في البشر منذ كانوا)) [2].

ويعطي ابن خلدون العصبية أهمية كبرى في تأسيس الدول والممالك ويشرح بتفصيل ما يعرض لهذه العصبية من أحوال قبل قيام الدولة وعند بلوغها أوج عظمتها ، إلاّ أنّ الناظر بتعمق في الفصول التي عقدها لبيان هذه النظرية يلمس

انه توسع فيها إلى درجة إنها صارت بمعنى العنصر القوى الذي يستند إليه الحاكم في استيلائه وانه إن كان في الغالب يكون هذا العنصر من أهل النسب المستولي.

وقد تضمنت الموضوعات المتعلقة بالعصبية نظريات عميقة تطبق على كل عصر وفي كل زمان وفي جميع الأمم وان تغيرت المصطلحات السياسية ومن نظرياته في أسباب انحطاط الدول وفنائها ابتعادها عن حياة الخشونة الأصلية التي يتصف بها عادة المؤسسون الأولون للممالك.

فعندما يحصل الترف والانغماس في النعيم يتبعها الميل إلى الراحة والدعة وينتج عن ذلك فقدان الشجاعة فتضعف الحماية ويذهب البأس ويحل الهرم. وقد أبدع ابن خلدون في تصوير هذه الأحوال بالأدلة على عادته من التاريخ.

أما البحث فانه يحتوي على موضوعات عدة مختلفة تتضمن حياة ابن خلدون ونشأته، ثم حياته السياسية والظروف التي مَرَّ بها ثم فكر ابن خلدون عن العصبية، فضلا عن العصبية وأثرها على الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الدين والدولة ثم الخاتمة وأخيرا المصادر.

المبحث الأوّل: نشأة ابن خلدون

ترك لنا ابن خلدون موجز تاريخ حياته مدونا بخط يده تحت عنوان (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا).

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ،اذ ذكر بأنه ينحدر أصلا من أسرة عربية أرستقراطية كانت قد تركت موطنها في اليمن وانتقلت إلى أسبانيا عندما جاء جده الأعلى (خالد بن عثمان) من بين الذين دخلوا الأندلس بعد الفتح العربي بقليل وكان ذلك في القرن التاسع الميلادي.

وكعادة الاندلسيين في تعظيم الناس جعلوا اسمه (خلدون) مثل زيدون وحمدون، ورحلت أسرته إلى تونس قبل مولده بنحو قرن من الزمن، واشتهرت بالعلم والسياسة.

وفي تونس عام (٧٣٢هـ / 1332م) ولد ابن خلدون، وفيها نشأ إذ تتلمذ في حداثته على والده الشخصية الوحيدة في الأسرة التي فضلت العلم على الاشتغال بالسياسة[3] . ويقول كان من حظي أن حفظت القران عن ظهر قلب في التاسعة من عمري، ويقول كذلك ، أمضيت بعد ذلك خمس سنوات في شغل نفسي بفقه اللغة وبقواعد اللغة والنحو والنثر والشعر، واشتقاق الكلمات ومؤلفات متعلقة بعلم الحساب.

وفي الرابعة عشر تطرقت دراستي علم الفلك وعلم التنجيم بالرمل وعلم الهندسة (اقليدس والماجسطي) آخذا عن الطرائق المختلفة لأساتذة مدرسة البصرة واليونانيين المحدثين والقدماء والهنود والبابليين[4]. ولم يكد ابن خلدون يبلغ الثامنة عشر من عمره حتى توفي والده بالطاعون الذي عَمَّ البلاد في ذلك الزمان.

وانتقل ابن خلدون بعد وفاة والده الذي تتلمذ على يده إلى التتلمذ على يد (عبد الله الابلي) أحد الآخذين بمبدأ (أرسطو)، فدرس عنده فلسفة (ابن رشد وابن سينا) وغيرهما من فلاسفة الإسلام. وان كتاب (لباب المحصل في أصول الدين) المؤلف الذي كتبه ابن خلدون وهو لا يزال في العشرين من عمره يدل دلالة قاطعة على موهبة عالية وعلى اهتمام كبير منذ حداثته بالبحث العلمي[5].

وأخيرا توفي العلامة ابن خلدون في السادس عشر من آذار سنة ٨٠٨هـ / 1406 م في مصر وكان يشغل منصب القضاء.

الحياة السياسية لابن خلدون

لم تكن قابليات ابن خلدون تفصح عن ذاتها حتى تسابق سلاطين المغرب يخطبون وده عارضين عليه أرفع المناصب. وقد ساعد في تزايد هذه الخطوة وكان يتمتع به المؤرخ العربي من نفوذه في أوساط القبائل البدوية الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تعاظم طموحه إلى السلطة وعمق حب المغامرة في نفسه جو المغرب الذي كان يفتقر إلى الاستقرار السياسي.

وفي سنه (١٣٥٠م) استدعاه (ابن كاتافراكي) وعينه كاتبا للعلامة في قصر السلطان (أبى اسحق) ولم يلبث (ابن خلدون) في هذا المنصب إلا قليلا حتى تركه والتحق ببطانة السلطان (أبى عنان) في فاس فعينه فيما يشبه وظيفة السكرتير الخاص، بَيْدَ أنَّ هذا المنصب لم يكن ليشبع طموح (ابن خلدون) الشاب الذي عبرعنه:

((فقبلت على مضض من حيث لم اعهد مثل هذا المنصب لسلفي)) [6].

وفي سنه (1359م) قام بدعاية واسعة وسط القبائل البدوية لصالح (ابن سالم) الذي يطالب بعرش فاس، فلما تم النجاح لابن سلاّم اتخذه سكرتيرا له ثم حدث ان جرى في نهاية سنة (1361م) انقلاب ضد السلطان. فلم يسع (ابن خلدون) إلا أن يؤيد الانقلابين برئاسة الوزير(عمر عبد الله) فأبقى على وظائفه السابقة بعد نجاح الانقلاب، إلا أنه استقال بعد ذلك فأثار حفيظة الوزير ضده وشعر (ابن خلدون) بالخطر يتهدده من جانب الوزير فرجاه أن يأذن له بالعودة إلى تونس فأذن له بعد تلكؤ مشترطا عليه مجانبه تلمسان أبان الرحيل، عند ذاك اختار (ابن خلدون)الرحلة إلى الأندلس، ولقي (ابن خلدون) في الأندلس الترحاب والاحترام من لدن سلطان غرناطة (ابن الاحمر) ووزيره المؤرخ الشهر ابن الخطيب. وبلغ من ثقة السلطان به ان اوفده سفيرا عنه للتفاوض مع (بطرس) ملك قشتالة، فقام ابن خلدون بالمهمه خير قيام ونجح في عقده معاهدة بين الطرفين[7] وعند عودته كافئه السلطان بأن اقطعه قرية البيرة من أعمال غرناطة.

بعد ذلك عاد من الأندلس إلى المغرب وقد ساعده في تعجيل هذه العودة انتقال السلطة في بجاية إلى يد صديقه الأمير (محمد)، وفي بجاية عُيَّن ابن خلدون حاجبا للقصر وكان في هذه المرة إلى جانب مشاركته في إدارة شؤون البلاد السياسية يزاول نشاطا علميا بإلقاء محاضرات عن الفلسفة في جامع القصبة.

وبعد سلسلة من الاخفاقات السياسية في بلاد المغرب توجه (ابن خلدون) ثانيه إلى الأندلس ربيع عام (1374)، ولم تطل إقامته هذه المرة غير

بضعة أشهر قفل بعدها راجعا إلى المغرب و توجه إلى تلمسان ويظهر أن (ابن خلدون) قد سأم السياسية ومغامراتها ولذلك نراه يرفض المهمة التي انتدبه لها السلطان (أبو حمو) في الدعوة بين القبائل ومن ثَمَّ ولى وجهه شطر قلعة (ابن سلام)اذ قضى أربع سنوات في البحث والاستقصاء العلمي كان من ثمراتها كتاب (المقدمة) [8].

وقد شهدت السنوات التي قضاها (ابن خلدون) في تونس بعد عودته من القلعة صراعا حادا بين إتجاهين: رجعي يمثله (المغني ابن عرفه)، و إتّجاه تقدمي بقيادة (ابن خلدون) وقد شدد في حدة الصراع ميل طلبة (ابن عرفة إلى ابن خلدون) وإقبالهم الى سماع محاضراته.

شعر ابن خلدون بالخطر على حياته نتيجة ذلك فطلب الإذن لمغادرة البلاد إلى مكة متذرعا بالحج وجاءه الإذن من تونس ولكنه لم يحج في تلك السنة بل عرج الى مصر حيث أقام إلى آخر يوم في حياته....

وكانت مصر محكومة من المماليك في ذلك العهد. وكان حكم المماليك البيروقراطي عقبة كأداء في تطور البلاد اللاحق.

وكان ابن خلدون يعمل وسط هذا الجو من الفساد الشامل وكقاضٍ مشهود له بالنزاهة وتحت تأثير مثله الخاص كمفكر كان مضطرا إلى أن يقف بوجه الاستبداد وان يحتقر الشفاعات والوسائط معرضا بذلك نفسه للعزل مرات عدة. يقول أبو المحاسن مشيرا إلى ولاية ابن خلدون للقضاء ((فباشر بحرمة وأمره وعظمة زائدة وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان فاخذوا في التكلم في أمره)) [9].

وفي سنة (١٣٨٧م) حجَّ ابن خلدون إلى مكة وبعد عودته من الحج عين مدرسا للفقه في مدرسة صرغتمش.

وظل في القاهرة بعد عودته من دمشق ليتولى منصب القضاء ثم عزل عنه. وقد توفي كما ذكرنا سابقا في السادس عشر من آذار سنة 1406م / 808 هـ.

المبحث الثاني: مقدمة ابن خلدون

١. الظروف التي كتبت فيها المقدمة

إن التحمس من سنة الحياة الحافلة بالعمل السياسي والعلمي والمتمثل بالحوادث والصراع مع الكتل المتعددة أكسبت ابن خلدون تجربه واسعة هيأت له مادة علمية غزيرة كانت الأساس الذي قامت عليه مقدمته الشهيرة[10].

ونتيجة للسأم السياسي ومغامراته توجه ابن خلدون إلى ابن سلام واعتزل بها ومضى فيها أربع سنوات في البحث والاستقصاء العلمي وكان من ثمراته كتاب (المقدمة)[11].

٢. محتوى المقدمة

تقع المقدمة في حوالي ستمائة صفحة مقسمة على ستة أبواب كبيرة مع تمهيد حدد فيه موضوع وهدف التاريخ وتطرق إلى أخطاء المؤرخين وأسبابها.

وقد كرس الباب الأول من أبواب المقدمة لدراسة نشوء المجتمع الإنساني و أثر الوسط الجغرافي في تطوره.

في حين تناول الباب الثاني الحياة البدوية أو أثر الوسط الاجتماعي على عادات وتقاليد الإنسان. والباب الثالث كرس لدراسة نشوء وتطور الدول والأسر الحاكمة وأسباب سقوطها.

وتحدث في الباب الرابع والخامس عن حياة المدن ووسائل العيش وطرق الحصول عليها وعن التجارة والصنعة وأنواعها.

أما الباب السادس فقد تحدث عن مشكلات الفكر الإنساني وأصناف العلوم.

ويتضح من هذا التقسيم أنّ المقدمة و إنْ كانت تحمل طابعا انسكلوبيديا، فإنّ أبوابها تترابط فيما بينها ترابطاً منطقيا ينسجم مع جوهر نظرية ابن خلدون الاجتماعية[12].

إنّ محاولة دراسة المجتمع الإنساني من المفكرين العرب كانت قد سبقت ظهور المقدمة لسنين طويلة، مثل ذلك محاولة (الفارابي) في كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) ودراسة (الماوردي) في كتاب (أدب الدنيا

والدين) ولكن هذه المحاولات كانت ناقصة ومحدودة، ولابن خلدون وحده فقط يعود الفضل فلأول مرة في تاريخ العلوم الاجتماعية يطرح المجتمع الإنساني وظواهره على البحث العلمي المستفيض ولهذا له الحق ان يحتفظ لنفسه بحق ابتداع (العلم الجديد)[13].

المبحث الثالث: فكر ابن خلدون بالعصبية والدولة

يولي (بوتول) اهتماما كبيرا لبحث فكرة العصبية عند (ابن خلدون)تلك الفكرة التي ميز (ابن خلدون) في ضوئها قيام وسقوط السلالات والدول ويبدو ان (بوتول) لا بد أن يأخذ بالحسبان المدة الزمنية التي انقضت منذ أن ألف ابن خلدون مقدمته ولا يرى ما جرى على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في شمال أفريقيا بعد ذلك الحين فيرى سبب انعدام الاستقرار في هذه البلدان وبما جرته عليها السيطرة الاستعمارية من ويلات ولكن يقوم أهلها بدور محبين للقتال[14].

أما بالنسبة لفكرة ابن خلدون عن العصبية فانه يفترض أنّ كل جماع ة هي بصورة فطرية ذات توجه عدواني تجاه الجماعات الأخرى تماما كما يتصرف الأفراد بصورة عدوانية تجاه بعضهم بعضا.

وفي حين أنّ المدن تحمي ذاتها من العدوان الخارجي بواسطة الأسوار، ومن النزاعات الداخلية بهيمنة الحاكم وبطشه.

فان السلام الداخلي في الموطن البدوي يضمنه شيوخهم الكبار، بينما تتكفل العصبية مسالة الدفاع الخارجي [15] وهنا تستعمل العصبية بمعنى (اسم للجماعة ومرادف لرابطة القرابة المشتركة أى بمعنى العصبية تماما) إذن فالقبيلة هي ممثلة للقوه والعصبية الخالصة.

فالعصبية بالنتيجة تتم إلى شخص ماوهذا ما يوضحه (ابن خلدون لدى مناقشته لاستمرار العصبية وانتضامها في سلسلة نسبية واحدة مما يمت للخط الأقوى في القبيلة هو العصبية الرئيسة والمهيمنة في القبيلة ككل إذ تطغى

وتسيطر على العصبيات التي تخص الجماعات الأخرى وتقوم بدور العصبية المتميزة عن هذه العصبيات الثانوية منها والقوية[16]:

١. العصبية والدولة

إن العصبية القبلية هي أساس الملك إذ الأصل في المجتمع حالة البداوة ثم يؤدي التنازع بين العصبيات إلى تغلب إحداها فيكون لها الملك.

هناك دورة رباعية يمر بها كل مجتمع لكي يصل إلى الدولة ومن ثَمَّ تنهار وهذه الأدوار باختصار هي:

يكون الجيل الأوّل: على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها.

الجيل الثاني: تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة، ومن الخشونة الى الترف.

الجيل الثالث: ينسون عهد البداوة كان لم تكن ويبلغ فيهم الترف غايته بما انغمسوا فيه من نعيم فيصيرون عالة على الدولة وتقوم بحمايتهم كالأطفال والنساء إذ لا ينهضون لمدافعة عدو أو الدفاع عن الوطن.

الجيل الرابع: تسقط تحت ضربات دولية جديدة ناشئة تكون في حالة البداوة الوحشية[17].

إن السبب في تعاقب الدول وقيام مماليك وسقوط أخرى مرتبط بالعصبية، وهكذا (الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص)، لا تتعداها قدرها ابن خلدون (120) سنة لكل جيل منها (٤٠) سنة ـ لان عمر الحادث أي الموجود المحدث ـ من قوة مزاجه ومزاج الدولة إنما هو العصبية، وإذا فسد المزاج، وهو هنا العصبية فسدت الدولة حتما وتداعت إلى السقوط والانهيار التام لتترك الميدان لقيام دولة جديدة لعصبية جديدة قوية.

إذن نقطة النهاية والبداية معا في الترف والنعيم هذه (الحضارة) المفسدة للعمران (الحضارة) تستهوي البدو فتلتحم عصبياتهم للجري نحوها و(الحضارة) تفسد طباع البدو فتنكسر عصبيتهم ويختل عمرانهم وتسقط دولتهم)[18].

وهنا يكمن رأس المشكلة، إن الدولة تهرم وتسقط لا لانَّ عصبية جديدة قامت مطالبة بالملك فغلبتها بل أنّ هذه العصبية ربما تقوم بالمطالبة لان الدولة القائمة هزمت وتداعت إلى السقوط، إن هرم الدولة ليس نتيجة لفساد عصبيتها وكثرة الخارجين عليها، بل أنّه هو نفسه السبب في كل ذلك. أما علة هذا الهرم فهو ليس شيئا آخر غير (الحضارة) بالذات، وكانت حركة التاريخ التي جسدها (ابن خلدون) في الانتقال من البداوة إلى الحضارة عبر الدولة، حركة دورية وليس حركة مستقيمة.

٢. العصبية وأثرها على الحضارة العربية الإسلامية

العصبة والغزو حسب نظرية ابن خلدون هى المسؤولية عن النمط العام للحضارة العربية الإسلامية سياسيا واجتماعيا وعمرانيا وثقافيا ودينيا.

أ. من الناحية السياسية

تمتاز الدولة التي ينشئها هؤلاء البدو الرحل باتساع الرقعة من جهة، وسرعة الزوال من جهة أخرى. أما اتساع الرقعة فرجع إلى عدم استقرارهم بالأرض وعدم ارتباطهم بها، فهم (ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون إليه فنسبه الأقطار والمواطن إليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكه قطرهم وما جاورهم من البلاد. ولا يقفون عند حدود أفقهم بل يطرفون إلى الأقاليم البعيدة من البلاد، ويتغلبون على الأمم النائية).

فالدول التي ينشئها هؤلاء (العرب) ومن في معيتهم لايصمد طويلا بل سرعان ما (تهزم) وتزول ذلك لان اتساع رقعة دولتهم يحملهم على التوزيع في الآفاق البعيدة، فتضعف عصبيتهم الجامعة بطول المسافات الفاصلة بينهم وتحل محلها العصبيات الخاصة المتنافرة والمتطاحنة

وأيضاً فقد اعتاد هؤلاء التنقل والترحال في صحرائهم طلبا للعشب والكلأ ترعاه إبلهم أو للخيرات الجاهزة يأخذونها غرة من أيدي أصحابها. وعندما يتوجهون إلى تأسيس الدولة ويبقى هذا الطابع الخاص لهم طابع طي المسافات

وعدم الاستقرار غالبا على سلوكهم الحربي الاقتصادي مما يجعل أثرهم في المناطق التي يحتلونها يبقى ضعيفا سطحيا سرعان ما يتلاشى ويزول[19].

وإذا كان العرب أول عهدهم بالإسلام قد استطاعوا ال محافظة على تماسكهم ومن ثَمَّ على البلاد التي فتحوها، مثلهم في ذلك مثل دولة (لتونة) ودولة (الموحدين) بالمغرب اللتين تأسستا على أساس دولة دينية فما ذلك ، إلا (إن الاجتماع الديني ضاعف قوة
عصبتهم بالاستبصار والاستماتة)

فأنصاعت لهم العصبيات الأخرى وانضمَّ بعضها بتأثير (الاجتماع الديني) إلى عصبيتهم.

أما عندما حالت صبغ ة الدين وفسدت، فـإنّ دولهم لم تكن تصمد طويلا أمام انتفاضات العصائب وطمع الدولة المجاورة بل سرعان ما تتمزق وتضمحل.

ب. من الناحية الاجتماعية

إنّ طريقة الكسب أو النحلة المعاشية التي يختص بها هؤلاء نحلة (الأمارة)لا تسمح لهم بالاندماج الكلي في سكان المناطق التي يحتلونها ويقيمون فيها دولهم: لقد كان العرب ((أجانب عنالمماليك التي استولوا عليها قبل الإسلام)) ولما تملكوها بعد الإسلام: ((انصرفوا إلى الرئاسة والملك وبقوا بمعزل عن المهن والصنائع والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجرى إليها) [20] ولذلك لم يندمجوا في أهالي البلاد التي فتحوها بل بقوا محتفظين بعصبياتهم وتنظيماتهم القبلية.

نعم لقد حاول الإسلام القضاء على العصبية الجاهلية وشجب بقوه الاعتداد بالأنساب، ولكن الاساس الاقتصادي(اقتصاد الغزو) الذي قامت عليه دولة الإسلام سرعان ما عمل على إحياء العصبيات العربية القديمة و إذكاء الصراع بينها.

إن إيثار بعض القبائل العربية بنصيب أكبر من الاعطيات وتفضيل بعضها على بعض فينقسم حصيلة الفتوح والغنائم والثروات، وفي حملة الفتح

الواسعة أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان من نتيجته تطوير العصبية العربية وصبغها بالصبغة الاقتصادية[21].

ت. الصبغة الاقتصادية

بعد أنّ كانت العصبية العربية في الجاهلية تتغذى بالاعتداد بالإنسان والمفاخرات التي حمل الشعراء لوائها، أصبحت بعد قيام الدولة الإسلامية ترتبط بالمصالح الاقتصادية مما زاد من حدتها وأشاع الفرقة بين فروعها. صحيح إن (رؤساء العرب) اخذوا بمظاهر الحضارة البيزنطينية في عهد الأمويين والحضارة الساسانية في عهد العباسيين، ولكن هذه المظاهر ظلت سواء عند هؤلاء أو أولئك مجرد ((مظاهر)) فقط (حضارة البلاط). فلم تتغلغل فيهم مقومات الحضارتين.

لقد نقلوا مظاهر هذه الحضارات إلى قصورهم ومطابخهم وألبستهم، ولكنهم لم ينتقلوا هم أنفسهم إلى هذه الحضارة او تلك [22] فبقيت بالتالي وضعيتهم الاجتماعية غير (طبيعية) كذلك.

ث. الناحية العمرانية

فإنّ ابن خلدون يعزو إلى(خلق البداوة) أو(بداوة العروبية) جميع نقاط الضعف في دولة العرب وحضارتهم، في(المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها والى من كان قبلها من الدول)، وكذلك، (المدن والأمصار في أفريقيا والمغرب) فـإنّ (عمران أفريقا والمغرب كله أو أكثره بدوي) أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال)، هذا في حين ان (عمران بلاد العجم كله أو أكثره قرى وأمصار ورساتيق في بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها) [23] ومثل عمران المغرب وأفريقية عمران غرب المشرق عموماً فان المباني التي اختطوها قليلة وما اختطوا منها(يسرع إليها الخراب إلا في الاقل - وذلك لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي - وإنما يراعون مراعي أبلهم خاصّة.

لقد بدأ العرب بعد أن غلبت عليهم (طبيعة الملك و الترف) في البناء والتشييد واستعملوا في ذلك (الفرس) و أخذوا عنهم الصنائع والمباني وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة من اجل ذلك (نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه الصنائع من قطر آخر ...وبحجم المغرب مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداو ة منذ أحقاب السنين).

ج. الناحية الثقافية

يقرر (ابن خلدون) (إن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم لامن العلوم الشرعية، ولا من العلوم العقلية، إلا في القليل النادر، وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته))[24].

هذه الظاهرة ليست راجعة إلى نقص في (العقل العربي) ولا إلى تفوق جنس الأعاجم (الآري) على الجنس العربي السامي.كما كان الاعتقاد سائد آنذاك، ولكن السبب يرجع كما يؤكد ابن خلدون نفسه هو وضعيتهم الاجتماعية، (لمقتضى أحوال بساطة الحياة والبداوة).

أما حين دخلت دولة العرب طور الحضارة فانّ الذين أدركوا منهم هذا الطور شغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك مع القيام بالعلم والنظر فيه وأصبح العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع.

نعم لقد شجع الخلفاء والملوك العرب العلم والعلماء وأقاموا لهم المجالس واجزلوا لهم العطاء، وإذا كان هذا قد شجع القائمين بالعلم على البحث والترجمة ونقل التراث الثقافي اليوناني والفارسي والهندي الى اللغة العربية، فان من جهة أخرى قد جعل العلم محصورا في دائرة خاصة دائرة الأرستقراطية الحاكمة. ولما كانت الأرستقراطية (مؤقتة) بمعنى إنها ليست وراثية فان العلم والنشاط الثقافي على العموم كان يهتز باهتزازها.

وهكذا بقيت الثقافة كغيرها من المظاهر الحضارية الأخرى تطفو على السطح تنحط وتزدهر بانحطاط أو ازدهار اقتصاد الدولة.

ح. التداخل بين الدين والدولة

لقد رافق انتشار الإسلام كعقيدة دينية نشوء دولة العرب فمنذ بداية الدعوة المحمدية وخاصة بعد الهجرة، ودولة العرب دولة الإسلام تنشا وتستكمل تنظيماتها ومقوماتها شيئا فشيئا إلى أن أصبحت حقيقة واقعية بعد (سقيفة بني ساعد) التي اجتمع فيها المهاجرون والأنصار لاختيار من يخلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي لاختيار رئيس الدولة. ولما كانت البيئة العربية في الجاهلية بيئة قبلية صرفة، مجتمعا بدون دولة، فلقد كان من الطبيعي ان تنشأ دولة الإسلام مطبوعة في نظامها وتشريعاتها بالنظم القبلية إلي حد كبير.

لقد شجع الإسلام عدداً كثيراً من العادات الجاهلية وحَرّم عدداً آخر في المعاملات والمؤسسات الاجتماعية كالربا مثلا ولكنه أقر كثيرا من النظم الاجتماعية القبلية التي لم تكن تتنافى مع أخلاقية الإسلام ومثله العليا مثل النظم والعادات التي تشكل ما يطلق عليه عادة (الديمقراطية القبلية).

ولقد ظل المسلمون يعتقدون إن الإسلام لا يعترف إلا بحاكم عام واحد هو خليفة المسلمين أو خليفة النبي (صلى الله عله وسلم) الساهر على تنفيذ أحكام الشريعة، وبما أنّ دولة الإسلام قد ضمت بسرعة البرق عددا من المناطق الجغرافية والطبيعة المتباينة ومناطق صحراوية وشبه صحراوية مناطق حارة وأخرى معتدلة وثالثة باردة، كما ضمت أجناس لم يكن من الممكن اندماجها بسهولة اندماجا كليا في أمه الإسلام. ولذلك ظلت الخلافة منذ انتهاء عهد الفتوح بل منذ خلافة عثمان بن عفان (رض) مهزوزة تهدها الثورات المتلاحقة باستمرار ثورة الامويين[25].

فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق اكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة والوازع عن التحاسد والتنافس[26].

إ نّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك: والسبب في ذلك أنهم اكثر بداوة من سائر الأمم و أبعد مجالا في القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم، فصعب انقياد بعضهم

لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش، ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبية التي بها المدافعة فكان مضطرا إلى إحسان ملكتهم وترك مراعيهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيه هلاكه وهلاكهم.

وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعا بالقهر والألم تستقم سياسته وأيضا فان من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصّة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا آية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم. إلا أن الكثير منهم يجهل انهم قد كان لهم ملك في القديم لأحد من الأمم في الخليقة، ما كان لأجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهد بذلك ثم دولة مضر في الإسلام وبني أميّ وبني العباس، ولكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة، وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما في المغرب العهد فلا يكون حالة وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه والله يؤتي ملكه من يشاء[27].

المبحث الرابع: الأعراب ودورهم في تكوين الدولة (الملك)

يقول (ابن خلدون) إنّ الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها: اعلم انه لما كانت البدواة سببا في شجاعته لاجرم أن هذا الجيل الوحشي اشد شجاعة من الجيل الآخر فهم أقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم في الأمم بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأمصار فكلما نزلوا الأرياف وتغنكوا النعيم وألفوا الموائد والخصب في المعاش والنعيم نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبداوتهم.

فمن كان من هذه الأجيال أعرف في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب إلى التغلب على السواء إذا تقاربا في العدد وتكافأ في القوة والعصبية وانظر في ذلك شأن

مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين إلى الملك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه.

لما بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أزهقت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم، وهذا حال بني طيء وبني عامر بن صعصعة وبني سلم بن منصور في بعدهم لما تأخذوا في تأديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا شيء من دنياهم.

كيف أمسكت حال البدواة عليهم قوة عصبيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتى صاروا وأغلب على الأمر منهم وكذلك كل حي من العرب يلي نعيمها وعيشها خصبا دون الحي الآخر فانّ الحي المبتدأ يكون اغلب له وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعود سنه الله في خلقه[28].

إلا انه من ناحية الملك لشدة خلق التوحش منهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة، وتعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم. إلا انهم ممكن أن يحصل لهم الملك بصيغة دينية من نبوة أو ولاية.

١. العرب وابن خلدون

إنّ بعض المؤرخين المعروفين باحتقارهم الخفي والظاهر للحضارة العربية اسرعوا الى الاستظهار لحكم (ابن خلدون) هذا لتأييد رأيهم أي تأييد بان (ابن خلدون) من محض العرب وقد شاهد تصرفهم والجميع يعترف بعبقريته وصدق بصيرته ، فلو غضضنا النظر عن المشكلة المذكورة لأعد حكوتنا سكوت القلق والخجل.

فإذا قال بعضهم مثلا إن العرب كارهون للتقدم بحكم مزاجهم هل تقبل هذا الرأي وان تحقق أن (ابن خلدون) رأى الرأي نفسَهُ.

بل قال آخر وهو مندهش لنبوغ ابن خلدون ((أن ابن خلدون مولع باستطلاع الأمور فما اغرب هذه الخصلة الغريبة من امرئ مسلم))[29].

٢. ماذا قال ابن خلدون عن العرب

جاء في الفصل السادس والعشرين من الباب الثاني للمقدمة ((انهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش والسياسة فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا أما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران مناقضة له، فغاية الأحوال العادية عندهم الرحلة والتغلب وذلك يناقض للسكون الذي به العمران ومناف له، فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه انا في القدر فينقلونه من الباني ويخربونها عليه، ويعدونه لذلك، والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به حياتهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك مضارات طبيعية وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران ٠٠٠))[30].

هذا أول نصه بالحرف أما بعد ذلك فهناك نصوص عدة ممكن الرجوع إليها في المقدمة لتبين عيوب تلك المجتمعات وأسباب الفوضى فيها ويلخص ابن خلدون حكمه في جملة هي:

((إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب)).

فلِنّ القارئ لا يكاد يطالع هذه السطور حتى يخطر بباله أن (ابن خلدون) لا يرمي بقوله إلا نوعا بعينه من العرب لانّ العرب نوعان أولهما عرب البادية الذي لا يزال بعد ظهور الإسلام ساكنين القفر مقيمين معاشهم على الإبل فقط جارين على نظام القبلية كما كان عهدهم أيام الجاهلية وهؤلاء العرب عادة يطلق عليهم اسم الإعراب لا اسم العرب.

أمّا العرب من النوع الثاني فهم متحضرون هم عرب الإسلام دولتا بني أمية وبني العباس في الشام والعراق ثم عرب الأندلس أيضا في المغرب.

هل يتصور أحد أي تشابه بين قصر الحمراء بغرناطة مثلا وبين الخيام المذكورة في نص (ابن خلدون) ؟ كلا. من البديهي إذن أن ابن خلدون وان استعمل كلمة العرب لم يردبها إلا الإعراب وبمجرد تصحيح هذه الكلمة يصبح نص (ابن خلدون) مطلق لحقيقة **الاشياء**[31]

ويتبرأ (ابن خلدون) من عيب العنصرية لأنه لم يرم العرب من حيث الجنس وأنما مراده طور من أطوار الأمة العربية في طورها الاجتماعي وتطور المجتمع من البدو إلى السكون ومن التوحش إلى الحضارة شأن جميع الأمم لا تنفرد به الأمة العربية فحسب.

هذا ما يخطر أحيانا ببال القارئ المخلص وهذا ما يلتجئ إليه التفسير في اكثر الاحيان[32]. وهنا ينقل كلامه بالحرف الواحد.

((انظر في ذلك شان مضر مع من قبلهم من حمير وكهلان السابقين وأما من كان معاشهم في الإبل فهم اكثر طعنا وابعد في القفر مجالا إلى الملك والنعيم دفع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمة لما بقي مضر في بداوتهم ونقدهم الأخرون إلى خصب العيش وغضارة النعيم كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم في أيديهم، وكذا كل حي من العرب))[33].

ماذا يريد ابن خلدون بذلك ؟ إن مراده أن يثبت أن عرب مضر احتفظوا بكامل شجاعتهم لتأخرهم في باديتهم عن سائر أحوالهم عرب حمير وكهلان وربيعة. على انه يرى في الوقت نفسه ان عرب حمير وكهلان وربيعة ما كادوا يطيلون المقام في الأرياف حتى نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم، وبعبارة أخرى يرينا أن عرب حمير وكهلان وربيعه تحضروا بعد بداوتهم وتوحشهم وهم ولاشك في ذلك من الإعراب ويؤكد ابن خلدون: (وكذا كل حي من الإعراب).

ما اعظم الفرق بين كلامه هذا وبين ذلك النص المشار إليه وحده عاده والذي جاء فيه ان العرب وصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو اصل العمران.

وهذا ما أثبته بعض العلماء المحدثين الي أنّ تفكير ابن خلدون من أن العرب وفيهم الإعراب - خليقون بالتطور والتحضر والتقدم.

لقد كانت أمنية (ابن خلدون) أن نتعظ بعبر التاريخ ونحن نعتقد ان العبرة التي استنتجناها من تصفح فصول عديدة من المقدمة تعبر عن تفكير (ابن خلدون) الحقيقي تعبيرا أصدق مما استنتجها بعضهم من فصل واحد منها.فلنستمسك إذن

مما هو خصب حتى في تفكير (ابن خلدون) لتجدد تاريخ المغرب منذ ما قرب على تسعه قرون تقريباً. ويظهر ذلك أن هذه المناقشة حول نظرية (ابن خلدون) لم تخل من أهمية بل من ضرورة.

الهوامش

(١) ف. انجلز: ديالليتيك الطبيعة ، الطبعة الروسية ، 1955 ، ص5.
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، 1900 ، ص82.
(٣) ماجد، عبد الرزاق مسلم، دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، دار الحرية للطباعة- بغداد، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ٢٩.
(٤) عبد المجيد عبد الرحيم ، تطور الفكر الاجتماعي ، مكتبة الانجلو المصرية ، ص5.
(٥) عبد الرزاق مسلم ماجد، ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، المصدر نفسه، ص ٢٩.
(٦) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٥٥.
(٧) عبد الرزاق مسلم ماجد، ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، المصدر نفسه ، ص ٢٩.
(٨) يلاحظ.ف. روزنثال إن شعور القرف تجاه الحياة السياسية التي نعتها ابن خلدون بالمستنقع ، قد وجد انعكاسا في المقدمة. انظر ف. روز نثال، ابن خلدون المقدمة، الجزء الأول.ن.ي ١٩٥٨م، ص ٢.
(٩) اقتباس محمد عبد الله عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، القاهرة ، ١٩٣٥، ص ٧٧.
(١٠) ماجد عبد الرزاق مسلم، دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
(١١) ف. روزنثال، مصدر سبق ذكره، ص ٢.
(١٢) ماجد عبد الرزاق مسلم، مصدر سبق ذكره، انظر الفصل الثالث منه.
(١٣) ينظر ابن خلدون، المقدمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.
(١٤) ماجد عبد الرزاق مسلم، ابن خلدون، مصر سبق ذكره، ص ٢١- ١٣.
(١٥) عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخيته، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار الطليعة - بيروت، ط١، ١٩٨١، ص ١٠٨.
(١٦) المصدر نفسه، ص108-109.
(١٧) د. ابراهم احمد رزقانه، المجتمع العربي، دار النهضة العربية. ص62.

(١٨) محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون (العصبية و الدولة)، دار الطليعة بروت، ط ٣، ١٩٨٢، ص ٣٧٥.
(١٩) المصدر نفسه، ص ٤١١.
(٢٠) محمد عابد الجباري ، العصبية والدولة ، مصدر سبق ذكره ، ص412.
(٢١) المصدر نفسه، ص 413.
(٢٢) المصدر نفسه، ص 412.
(٢٣) المصدر نفسه، ص 414.
(٢٤) المصدر نفسه، ص 415.
(٢٥) المصدر نفسه، ص 422.
(٢٦) المصدر نفسه، ص 119-120.
(٢٧) المصدر نفسه، ص 121.
(٢٨) ابن خلدون، المقدمة، مصدرسابق الذكر، ص 108-109.
(29) E.f Goutier. alepass de Iafrique du word p. 101
(٣٠) ابن خلدون، المقدمة، الباب الثاني الفصل السادس والعشرين: ص ١٤٩.
(٣١) مهرجان ابن خلدون (مايو) نظمته كلية الآداب جامعة بغداد محمد الخامس، قدم الموضوع الأستاذ جرمان عباس، اسم الموضوع نظرية ابن خلدون في العرب، نشر وتوزيع دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٦٢، ص ٤٢.
(٣٢) انظر ما كتبه طه الراوي في مجلة الآداب والنص بالإنكليزية:
((إن أسلوب ابن خلدون بدا على انه جاري عرف زمانه في إطلاق لفظة العرب على الاعراب. انظر ايضا ما جاء في تأليف ساطع الحصري:
((دراسات في مقدمة ابن خلدون، ص ٠٧١: ((إن كلمة العرب في مقدمة ابن خلدون من الكلمات التي دلت اغرب الالتباسات... ذلك لان ابن خلدون استعمل الكلمة المذكورة بمعنى البدو الأعراب خلافا للمعنى الذي نفهمه الآن)) ويذهب إلى الرأي نفسه الأستاذ محمد الفاسي رئيس الجامعة المغربية في مقالة له: ((ابن خلدون والسياسة)) نشرته مجلة التربية الوطنية عدد (٢) - سنة ١٩٥٩،ص١١.
(٣٣) المقدمة ، الباب الثاني، الفصل السادس عشر ، ص ١٣٨.

المصادر

١. ابن خلدون، المقدمة الجزء الأول - الرابع، طبعة بيروت، 1900.
٢. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، القاهرة، ١٩٥٦
٣. الجابري، محمد عابد، فكر ابن خلدون (العصبية والدولة)، دار الطليعة - بيروت، ط3، 1982.
٤. د. زرقانة، إبراهيم احمد، المجتمع العربي، النهضة العربية.
٥. عبد المجيد، عبد الحميد، تطور الفكر الاجتماعي، مكتبة الانجلو المصرية.
٦. عزيز العظمة، ابن خلدون وتاريخه، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار الطليعة - بيروت، ط1 ، 1981.
٧. ف. انجلز، ديالكتيك الطبيعة، الطبعة الروسية، ١٩٥٥.
٨. ف. روزنثال، ابن خلدون، المقدمة الجزء الأول، ن. ي، ١٩٥٨م.
٩. محمد، عبد الله عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، القاهرة، ١٩٥٣.
١٠. ماجد، عبد الرزاق مسلم، دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، دار الحرية للطباعة - بغداد، 1396هـ / 1976م.
١١. محمد الفاسي، ابن خلدون، دار الكتاب - الدار البيضاء، بدون تاريخ.

An Arabic scientist Ibn Kheldoon (died 808 B.C)

Assistant Professor Dr. Ahlam Mohsen
Center revival of Arabic Scientific Heritage
University of Baghdad

(Abstract)

Ibn Khaldun is one of the best Arab Muslims scientists who participated in establishing Arabic Muslims heritage in all different disciplines & directions specially in sociology, neurological & his political theories which showed the development of Arabic philosophy in all scientific disciplines specially his introduction.

He built political theory (neurological) on some foundations. These theories were possible to apply in every age & time and all nations. Ibn Khaldun was great in the describing these cases with avidness. His aims in this subject were related together in accorder with his social theory He asserted that "Nuevo logical & invasion were responsible for general pattern of Arabic Islamic cultured politically, socially, culture_& regional". So that, Islamic state establishment was based on tribal system so, Ibn kaldun was asserted that we most caned about history through expression about his ideas.